الفصل الثالث

إذا طابت العيون عذبت الأنهار

د. محمود الجريدلي(*)

سبل النهضة معلومة، و نماذجها الإنسانية حية ظاهرة للعيان. ولكن تحقق مثل هذه النهضة مرهون بوجود أفراد قادرين على إنجازها. من أجل ذلك فما يجب الاهتمام به هو بناء ذلك الفرد المميز ذى المواصفات الخاصة من إرادة قوية للبناء، وحب مخلص وجاد للعمل العام المنتج، إضافة لما ذكرته في مؤتمرنا السابق من مواصفات المبدعين في العلم والفن.

في وجود هذه النوعية من الإنسان الجاد، المخلص، المعطاء، المحب، قوي الإرادة، فإن النهضة تأتي طيعة، نتيجة لجهد هذا الإنسان المتميز. وفي هذه الورقة أجتهد لبيان كيفية بناء الإنسان الذي نرجوه، لأنه إذا طابت العيون ـ أي المنابع ـ عذبت الأنهار المتدفقة منها.

الآراء حول النهضة تكاد تجمع على أن العلم والتعليم هما جناحا أية نهضة، والسبيل لتغيير خريطة العالم. هذا ما جعلني من البداية أقرر أن سبل النهضة معلومة، لذلك سأقتصر في هذا الجانب على طرح بعض الاجتهادات، جاعلا وجهتي للحديث البعد الإنساني من النهضة، لأنه محورها وهدفها، كما أنه لا يحظى بالاهتمام الكافي مثلما هو متحقق في الجانب الآخر العملي.

لما كانت الظاهرة الثقافية هي التجلي الواقعي للمجتمع، فمن خلالها تتبدى العادات والأعراف والقيم والمثل العليا، وكل ما يمس السلوكيات الإنسانية، إلى جانب ما يبدو من نتاج فني في مختلف الاتجاهات. من أجل ذلك فإن الإصلاح الثقافي الشامل يعد قاعدة راسخة لأي تغيير عميق، وأداته في هذا إقامة بنية تعليمية قوية تستهدف التأهيل والتدريب معا.

(*) دكتوراه في الأدب العربي، ودكتوراه في طب الأسنان.

واحترام الهوية الثقافية للأمة في هذه النهضة يعد المرتكز الأساسي لها، لأنها تعني التفرد الثقافي للأمة وتميزها عن غيرها من الأمم، بما تتضمنه من خبرات اجتماعية ضاربة في جذور التاريخ الوطني، من أنماط سلوكية، وقيم اجتماعية، والأهم من كل ذلك ومرجعيته، نظرتها الخاصة للكون والحياة. عدم احترام هذه الهوية الثقافية يعني الإخلال بالطبيعة الإنسانية المصرية، وعندئذ لا يمكن إحداث أي تقدم، بل تتجه الأمور للانحدار والاندثار. وتحدثنا شواهد التاريخ أن المستعمر يجعل همه الأول طمس الهوية الثقافية للبلاد المستعمرة، لإضعاف مناعتها للأمراض الاجتماعية الوافدة، فتفصل بين الأمة وتراثها الثقافي المحفز لها للتقدم.

والهوية الثقافية المصرية ثرية المحتوى، متعددة الأبعاد، عميقة الجذور، بما تملكه من حب عميق للدين والعلوم والآداب والفنون، مما جعلها مهيأة لأن تكون قبلة الرسالات، فموسى كان مصريا، وعيسى نشأ مصريا، ومحمد ﷺ صاهر المصريين. ومصر كانت أيضا قبلة العلماء والفلاسفة، واكتشافات المصريين تجاوزت حدود الزمن، يشهد على ذلك "نيوتن" في كتابه "المبادئ الرياضية **Principia Mathematical**"، إذ يقول: "عرف المصريون القدماء نظرية الذرة، ونظرية مركزية الشمس، والجاذبية الأرضية، وغيرها من الحقائق العلمية المعاصرة"[1].

وعى المصريون منذ فجر الحضارة وحتى العصر الحديث مكانة التربية والتعليم كأداة فعالة للبناء والإصلاح الثقافي، فنرى شيخ الإصلاحيين في العصر الحديث "رفاعة الطهطاوي" يكتب داعيا لتعليم الناشئة في "المرشد الأمين للبنات والبنين". ثم يتبعه الأستاذ الإمام "محمد عبده" ليجعل من التربية والتعليم سبيلا للإصلاح، فيترجم كتاب الفيلسوف الإنجليزي "هربرت سبنسر **Herbert Spencer**" عن التربية والتعليم: "**Education : Intellectual, Moral & Physical**"[2]، إلى جانب دعوته الجادة واهتمامه بتدريس العلوم الطبيعية، باعتبارها أساس التقدم الحضاري. أما العميد "طه حسين" فرأى في التعليم طريقا ديمقراطيا حقيقيا للرقي والتماسك الاجتماعي.

(١) الموهبة والإبداع ـ دكتور إبراهيم عيد ـ سلسلة اقرأ ـ العدد ٦٥٩ـ دار المعارف ٢٠٠٠.
(٢) رحلات محمد عبده إلى أوروبا ـ دكتور محمد رجب البيومي ـ مجلة الأزهر ـ شوال ١٤٢٦هـ.

على أنه من الخطر التشبث بتحقيق مستوى تعليمي أكاديمي واحد لكافة الطلاب، لأن الواقع العملي، والطبيعة البشرية، يظهران حقيقة مؤكدة نراها في ذلك التباين بين الأفراد في قدراتهم المختلفة. فهناك من له قدرات ذهنية عالية بينما قدراته المهارية العملية متدنية، وآخر يتمتع بمهارات عملية أو فنية عالية ولا تواكبها قدرات ذهنية، وكلاهما يتطلب لونا مختلفا من العناية والتوجيه.

فالأفراد تتفاوت منازلهم من حيث القدرة العلمية والعملية، فإن كان للإنسان همة عالية في المجالين كان إنسانا ذا مكانة عظيمة. وقد أثنى الله سبحانه وتعالى في محكم آياته على أنبيائه، فقال عز من قائل: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ (سورة: ٤٥ ص). والمراد بالأيدي هنا ليست الجوارح ولكن القوة أو القدرة المهارية اليدوية، كذلك الأبصار هنا لا تعني الإبصار بالعين ولكن البصيرة والعقل المتفكر وكمال الإدراك. ولهذا فإن الإنسان الذي نرجوه لا بد له من علم ينير له طريقه ويهديه، وعمل يتقنه ويؤديه.

إضافة لما سبق فإن الإنسان الذي نعنيه لابد له من همة عالية وإرادة قوية تسيره وترقيه، تلك الهمة التي تجمع القوتين العلمية والعملية معا لتخلق منهما القوة القادرة للتغيير الصحيح نحو التقدم والتطور. والهمم تقصر بالكسل أو الركون للهوى فتصير عجزا. وما لم يحسن المرء شيئا يقدمه للمجتمع، فإنه يكون بلا قيمة، لأن قيمة المرء ما يحسن، وفي قول آخر قيمة المرء ما يتقنه.

من أجل ذلك الهدف، وهو بناء الإنسان المتميز، فإنه يجب الانتباه لأمرين، الأول: هو حتمية توفير التعليم لكافة الأطفال إجباريا في المرحلة الأولى، وبصورة جادة منتجة، بمعنى أن الطالب بعد هذه المرحلة ينبغي أن يكون قد وصل لمرحلة من النضج العقلي والمعرفي تناسب هذه المرحلة العمرية، فلا نجد مثلا طلابا غير قادرين على القراءة والكتابة بعد هذه المرحلة كما نرى الآن. على أن يتم خلال هذه المرحلة اكتشاف قدرات ومميزات الطلاب ومهاراتهم المختلفة، سواء كانت ذهنية أم عملية، ليحسن توجيههم في المراحل التالية.

الرعاية العلمية مع تعليم المهارات العملية، إلى جانب كونها تزيد من قدرات الطالب فإنها تجعله على اتصال وثيق بالحياة اليومية و لا ينعزل عن قضايا مجتمعه، مما يؤدي لوجود

مواطن نشط، واع، خلاق، يؤدي عملا مثمرا للمجتمع. أقول ذلك عن تجربة شخصية عشتها أيام الدراسة، حين كانت المدرسة بها كافة الأنشطة العملية والفنية.

كانت بمدرستي الإعدادية فرقة للموسيقى، وكان الأستاذ/ "زينهم" مدرس الموسيقى له أكثر من حصة في الأسبوع يعلمنا فيها كتابة النوتة الموسيقية، وهو مستوى راق جدا من الدراسة لا يقدره إلا من كان له معرفة بهذه الدراسة. وكان الأستاذ يضم لفرقة الموسيقى أي طالب يجد عنده الموهبة المؤهلة لهذا أو عنده الاستعداد للتعلم، فيدربه ويصقل موهبته.

أيضا كانت هناك حصص مخصصة لدراسة الفلاحة وتربية الدواجن والنحل، وكان بالمدرسة مزرعة صغيرة للدواجن والأرانب، إلى جانب منحل به ما يقرب من عشر خلايا. علاوة على ذلك كان هناك معمل الفلاحة وفيه الأستاذ/ "يني" يعلمنا صناعة منتجات الألبان كالجبن بأنواعه والزبادي وغير ذلك، وعمل المرباة وتحضير عسل النحل.

أما الأستاذ/ "يوسف"، فكان يعلمنا في قاعة الأشغال الضخمة كل ألوان الفنون التطبيقية والأنشطة الحرفية. فهناك نول لتعليم النسيج وآخر لصناعة السجاد، وورشة للنجارة وأخرى لعمل البامبو أو أعمال الجريد. كل هذه الحرف كان يعلمنا فيها حرفيون متخصصون. أما الفنون التطبيقية فكانت تتضمن الحفر على النحاس والجلد، أو الرسم بالحرق على الخشب، أو أعمال البلاستيك وأشغال الأركت، وعمل التماثيل سواء بالصلصال أو عمل قوالب لصبها بالجبس.

كل هذه الأنشطة العملية اليدوية والتي تناسب كافة الميول دون إجبار أي طالب على لون معين منها، بل كان كل طالب يذهب ليستطلع بنفسه كل شيء إلى أن يجد ما يحبه ويمارسه، مستعينا بالمشرفين والحرفيين الموجودين لتعليمنا. كل هذه الأنشطة كان إلى جانبها أنشطة أخرى خارج الجدول المدرسي متمثلة في الجماعات المتنوعة مثل جماعة التمثيل والخطابة والصحافة والرسم والفرق الرياضية المختلفة.

أما في المرحلة الثانوية فكانت الجمعيات العلمية نشطة وتحفز الطلاب على البحث والابتكار. وتنوعت تلك الجمعيات ما بين جمعية الجغرافيا والتاريخ، إلى جمعيات الكيمياء والطبيعة. ومن خلال جمعية الطبيعة وبتشجيع أستاذي الأستاذ/ "منير" مدرس الطبيعة ومشرف الجمعية، قمت بعمل بطارية شمسية عام ١٩٥٧م حين لم يكن أحد يعلم عنها

شيئا . هكذا كانت الدراسة أكاديمية عملية في وقت واحد، وتعطي الفرصة للإبداع والابتكار .

بعد هذا الاستطراد أعود مرة أخرى للأمر الثاني الذي نبهت إليه، وهو عدم الاندفاع نحو التعليم الأكاديمي العام لكل الطلاب بعد المرحلة الأولى . لأن "التعليم كالماء والهواء" دون ضوابط، هو في الحقيقة إهدار للطاقات وإضرار بمبدأ تكافؤ الفرص، هذا المبدأ الذي يجب أن يرى من منظور آخر غير الذي أراده العميد ـ إن كان أراده ـ أو فهم منه على هذا النحو غير المنضبط، ذلك أن النظر للطلاب كأعداد فقط دون النظر إليهم كبشر متمايزين فيما بينهم بقدرات ذهنية ومهارية عملية متفاوتة، هو إخلال بمبدأ تكافؤ الفرص . فكل فرد يتميز عن الآخرين بمميزات يجب أن تحترم وتعطى لها الفرصة لتنميتها دون مزاحمة من الآخرين . هكذا يجب النظر لمبدأ تكافؤ الفرص من زاوية التوجيه التعليمي الأمثل لقدرات الطلاب والاستعداد الشخصي للدراسة، للوصول إلى أفضل منتج تعليمي . وفي هذا الشأن فإن على علماء التربية وعلم النفس مسئولية إيجاد أسلوب علمي وعملي متدرج، يمكن من خلاله الوقوف على المستويات المختلفة للقدرات الذهنية والمهارية للطلاب، من أجل الوصول لأفضل أسلوب لتوزيع الطلاب على الألوان المختلفة من التعليم، كل حسب ميوله ومهاراته وما يتقنه وما يريده . هذا المقياس للقدرات يجب أن يواكب المراحل التعليمية، بحيث يؤهل طلاب كل مرحلة للأخرى التي تليها .

وحتى لا يساء الفهم، أقرر أن هذه المنظومة التعليمية تضمن لكل مستوى فكري أو مهاري مكانه اللائق به، وترسخ اعتقاداً عامة لدى الجميع بأن كل الأدوار في المجتمع مطلوبة وهامة، لأن إنجاح المجتمع مهمة جماعية يشارك فيها الجميع كل بدوره، صغر الدور أم عظم في هذا العمل الجماعي المتكامل .

الاتجاه التعليمي الذي نحاول تصحيحه، هو ما جرَّ علينا ذلك التدني الذي بتنا نئن من قسوته علينا . وكنت قد انتقدت في رسالتي للدكتوراه تلك النزعة التي روج لها الإعلام، وجعل ما أطلق عليها بكليات القمة يتهافت عليها كافة الطلاب، بينما كليات مثل الزراعة، ونحن بلد زراعي، لم يتقدم لها أي طالب ! ! هذا التقسيم الإعلامي للدراسة الجامعية، حرم الكليات الأخرى من الطلاب الذين لو تركوا وميولهم الطبيعية لخطوا بتلك التخصصات خطوات متقدمة تخدم المجتمع .

التنافس في التحصيل لأجل الامتحانات، أي التلقين والحفظ، هو انحطاط بالذكاء لدى الطلاب، لأن الحفظ ومواهب الذاكرة ليس كل شيء في الحياة العقلية. من أجل ذلك فإن تشجيع غريزة البناء عند الطلاب بكل صورها العقلية والمادية والفنية لإكسابهم مهارات الابتكار يُعد حلا عمليا. والمنهج المقترح قائم على تشجيع وتنمية القدرات الخلاقة للوصول بها لأقصى ما تستطيعه إمكانات الطلاب المبدعة. فتحرير الطاقات الإبداعية والنفسية للطالب وتنمية قدراته فيما يتفق ومواهبه الفطرية ، الذهنية منها أو العملية، تتيح للمجتمع أفرادا مبدعين في شتى مجالات الحياة الاجتماعية.

هناك فضائل أرى من المحتم غرسها في الطلاب ليكونوا أكثر إبداعا في أفكارهم. أولى هذه الفضائل وأهمها فضيلة حب الاستطلاع، بعدها تأتي قوة الإرادة، الاجتهاد، الصبر، تركيز الذهن، الدقة في التفكير والتعبير، وأخيرا اتساع الأفق وشمولية النظر للأمور. ويجب إفهام الطالب أن المعرفة ليست سهلة المنال، إلا أنها جديرة ببذل الجهد في سبيلها، وأن الطريق لامتلاكها ممتع ومحبب للنفس.

عند هذه النقطة أحب أن أفرق بين المعرفة والمعلومات، وهي مسألة جوهرية، من خلالها يتضح الفرق بين التعليم الذي ندعو له، والتعليم الذي نشكو منه. تحول المعلومات لمعرفة يفترض لتحققه حدا أدنى من الفهم من خلال عمليات عقلية، كالربط بين معلومة وأخرى، أو المقارنة بينهما، إلى غير ذلك من أعمال العقل للوصول إلى معرفة محددة. هذا النشاط الذهني لتحويل المعلومات إلى معرفة هو ما يعرف بالتفكير. فإن زاد كم المعلومات عن حد معقول، أدى ذلك لضعف الاستيعاب نتيجة اختلاط المعلومات والتباسها بما يمنع التفكير من القيام بدوره الطبيعي في الفهم والاستيعاب، ومن ثَمَّ هضم المعلومات، أي تحويل المعلومات لمعارف تؤدي إلى نمو الفكر ورحابته.

فإذا نظرنا للتعليم من خلال هذا المنظور، نجد أن المعلومات المنقولة من المعلم إلى الطالب، والذي بدوره يكدسها ويحفظها لفترة محددة بغرض أداء الامتحان، وهو أيضاً ـ أي الامتحان ـ قائم على استرجاع وتكرار المخزون المعلوماتي لدى الطالب، قد جعل التعليم محصورا بين عمليتي التلقي والترديد دون إعمال الفكر. غير أن المعرفة الحق تتطلب زيادة القدرة التفكيرية واتساع مجالها، ولذلك فإن المعرفة الحقيقية تتأتى من معلومات أقل

وحكمة أكبر في التدبر والفهم، من أجل استيعابها ومن ثم الاستفادة منها في الحياة العملية. فعلى سبيل المثال، عندما ننظر في مسألة محددة فإن التفكير يتجه لنوعية معينة من المعلومات يمكن الاستفادة منها في هذه المسألة المحددة ويستبعد ما سواها من المعلومات، أي أن المعرفة تتطلب مقدرة ذهنية انتقائية تقوم بتصفية المعلومات المتراكمة بلا تمييز، للاستفادة بما هو مناسب منها وتنحية ما عداها جانبا.

وقد أشرت لهذه القضية في رسالتي للدكتوراه حيث قلت: "أهم ما يقدمه المعلم في العملية التعليمية، مساعدته لطلابه على اكتساب تبصر أعمق بالموضوعات التي يدرسها لهم. أما المعلم الذي لا يدرك خطورة وأهمية هذا الهدف، فإنه يتبحر في تقديم كم هائل من المعلومات دون هذا التبصر والتعمق".

"ومن أهم واجبات المربي أو المعلم المبدع أن يشجع الأصالة عند طلابه، وألا يقسرهم على طرائق الكتاب، وذلك من أجل غرس بذور الاستقلالية والأصالة فيهم. كما أن على المربي أن يجنب الطلاب "طريقة الاستظهار **Rote Learning**"، فهذا الأسلوب يقتل فيهم الإبداع، حيث يغلق الطريق أمام الاستفهام والنقد والتفهم، ولا يدع إلا طريق التقبل السلبي فقط". "التعلم يجب أن يكون لغاية سامية، للإبداع، وليس لمجرد كسب مادي... وإلا خسر المجتمع من كيانه نتيجة وجود أصحاب شهادات ومهن ليسوا على المستوى النفسي والإبداعي لتلك المهن، وهو ما نراه من تدني العمل المهني"[1].

"والغزالي" في رسالة "أيها الولد" يتناول موضوع النية في طلب العلم، وهي عنده رأس الأمر كله، فينبه تلميذه قائلا: "أيها الولد، كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيها؟ إن كانت نيتك نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيها إحياء شريعة النبي ﷺ، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك"[2].

---

(1) Herbert Spencer: English Sociologist & Philosopher (1820– 1920) – The new Encyclopedia Britannica. 5th. ed. 1993, vol, 11 page 83.

(٢) الآراء النقدية والبلاغية للغزالي في ضوء الدراسات البيانية- دكتور محمود الجريدلي- دكتوراه غير منشورة- كلية الآداب- جامعة عين شمس- ١٩٩٩. ص٧٦.

قضية الالتزام الاجتماعي لا يمكن أن تكون إلا نابعة من داخل الإنسان، وهذا الداخل لا يكون إلا بالتربية والتعليم، فهي الوسيلة الوحيدة للإصلاح الهادئ المتدرج للفكر الإنساني. وإلى جانب التعليم تقف الثقافة لتؤدي دورها في صناعة الوجدان لكونها أسلوب حياة ومناخ اجتماعي عام، وهي تمكن للقيم أن تنمو وتتجذر في المجتمع من خلال صور الإبداع الفنية المختلفة.

أما الثقافة بما لها من قدرة على تشكيل وجدان المجتمع من خلال الأعمال الفنية المقدمة للجماهير، فعليها مسئولية إزاحة كل المظاهر غير السوية من المجتمع، وإحلال قيم الديمقراطية، والحرية، والتسامح، والحوار الموضوعي العقلاني، وقيم الوضوح والنظافة. والليبرالية كفلسفة تعني بكافة حقوق الفرد ـ وأعرض لها هنا لأوضح أثر الإعلام في غرس مفهوم معين لدى الناس ـ فإنه للأسف قبل منها الشق الاقتصادي فقط، وألح الإعلام على تأكيد حرية المال واستثماره. وللأسف مرة أخرى انعكس هذا الاتجاه على مجال التعليم، وبتنا نسمع مصطلح "الاستثمار في التعليم" يتردد بيننا بقوة!!؟ فأي تعليم هذا الذي نرجوه، القائم على قوانين السوق والتجارة، وهدفها الأول الكسب والربح!!؟. اقتران التعليم بالاستثمار اقتران خاطئ ومدمر، وعلى الثقافة أن تصحح هذا الوضع الملتبس، فالتعليم أسمى كثيرا من أن يكون سلعة في سوق الاستثمار. ومن يرد أن يضع إمكاناته المادية في خدمة التعليم فعليه أن يقدم هذه الهبة دون التدخل في أمور التعليم من قريب أو بعيد، أي يكون مجرد ممول فقط للمشروعات التعليمية والبحثية.

ومع الاهتمام بالمال والاستثمار، وجدنا التركيز على أنماط وقيم استهلاكية في المجتمع، خاصة في مجال الإعلان، وهي مع التكرار والإلحاح تفسد العقول والضمائر الضعيفة، حيث الإبهار ببريق المال وجعله محور الاهتمام الأول، والطريق الرحب للراحة والسعادة، وهو ما أدى لتلك الموجه من الأخبار التي نطالعها عن الفساد والاستيلاء على الأموال والهروب بها، أو تهريبها للخارج، إلى غير ذلك من المفاسد الاجتماعية التي طفت على السطح.

سيادة قيم البيع والشراء، وإدخال العلاقات والأشياء داخل حلبة السوق، جعل القيم الإنسانية النبيلة تتوارى، فلم نعد نرى ما كان سائدا من قيم مثل البذل والتضحية دون

مقابل وما تعارفنا عليه باسم الشهامة. هكذا في ظل أعراف السوق غدا كل شئ قابلا للبيع والشراء، فتزايدت علل المجتمع، ومن أبرزها الآن ما نراه من مظاهر التفكك الأسري، الذي أنتج بدوره ظاهرة أطفال الشوارع، كظاهرة اجتماعية تحمل الكثير من الأخطار.

بريق المال والتطلع لامتلاكه لما يمثله من قوة في مجتمع السوق، يلبي حاجة النفوس الضعيفة لإثبات قوتها، والاستمتاع بهذه القوة من خلال قهر الغير وإشباع شهوة السيطرة. هكذا تكون "ثقافة السوق" -إن جاز التعبير-، ليس لها إلا معتقد واحد هو الربح، وهو معتقد يحمل في طياته كل ما هو لا إنساني. ومن يريد الاستزادة فعليه بمقدمة "ابن خلدون" وحديثه عن أخلاقيات السوق وأنها "نازلة عن خلق الأشراف". (1)

وحتى أكمل الحديث عن هذا الجانب المبدئي من النهضة، والخاص بالتربية والتعليم، فإني أعتقد أن الإطار التعليمي المقترح يجب أن تحكمه أهداف محددة يتوخاها تتمثل في

١- إرساء أسس تربوية سليمة.

٢- ترسيخ مفهوم المواطنة وحب الوطن، وبث روح الانتصار له.

٣- السماح للناشئين بالتفكير الحر دون قيود، بدلا من وضعهم في نمط فكري واحد.

٤- تشييد مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية الحقيقية والملموسة في الواقع العملي، فالعدالة مع الحرية الفكرية هما الشرطان الوحيدان لإقامة بيئة خصبة صالحة للإبداع والابتكار.

٥- الوقوف على آخر منجزات العلم الحديث.

٦- إنتاج نخبة من العلماء والباحثين في شتى التخصصات.

٧- بث روح الاحترام لكل عمل منتج في المجتمع، مهما كانت طبيعة العمل.

تلك اجتهادات قد تساعد في رؤية للتعليم تهتم أكثر بالجوانب المهارية والفنية إلى جانب المناهج الأكاديمية، لإتاحة الفرصة أمام كل طالب أن يختار ما يحقق موهبته وذاته. وعندئذ يأتي يوم يصير فيه كل فرد يعمل فيما يعشقه ويتقنه من عمل، خلاف ما هو شائع الآن من أفراد يؤدون عملا دفعوا إليه دفعا، أو أرغموا عليه قسرا، ومن ثم لا يجيدون ما يؤدون من عمل.

أختم هذا الجانب من البحث ببعض الملاحظات المفيدة في هذا السياق التربوي العلمي:

(١) أيها الولد - أبو حامد محمد محمد الغزالي - دار الاعتصام - الطبعة الثانية - ١٩٨٣.

١ـ ليس من سبيل للنهوض إلا بالعلم والتعليم، ولن يكون بمقدورنا درء الأخطار عنا في غيبة من البحث العلمي الجاد.

٢ـ التطوير الحقيقي للتعليم لن يكون إلا في وجود المعلم المخلص المحب، المؤثر بسلوكه الأخلاقي الراقي في تكوين الناشئة ، القادر على تنمية ملكات التخيل والإبداع لدى الطلبة، وليس استنفار قدرات التلقي والاستظهار. وإلى جانب المدرس المميز فإن المدرسة يجب أن تكون بيئة محفزة للإبداع من حيث الاهتمام بالمكتبة والأنشطة العلمية، وتدريب الطلاب على إنتاج المعرفة وكيفية البحث ومدى أهميته.

٣ـ توفير مناخ ثقافي اجتماعي يحترم ثقافة العلم والمعرفة، واحترام حقيقي وتقدير لكل من يخطو خطوة في سبيل التقدم العلمي. وفي نفس المسار وقف طوفان ثقافة اللهو ا لذي جرف أمامه قيمًا اجتماعية نحن في أمس الحاجة إليها، خاصة الترويج لثقافة السوق الداعية للكسب والمنفعة من أي طريق، مما دفع الأفراد لحلبة صراع جهنمية لا يستطيعون مواصلة الكفاح فيها مع قوى المال والعقل والروح، إلا من رحم ربك.

٤ـ العلماء لا يولدون مصادفة، ولا يبرزون بالموهبة فقط، وإنما يخرجون من رحم مجتمع يوفر لهم المناخ المناسب الذي يرعاهم ولا يحطم قدراتهم وطموحاتهم العلمية خاصة إذا ما كان المعلم أو الأستاذ عائقا في سبيل التقدم العلمي للطالب. أقول ذلك عن تجربة شخصية. فقد عانيت من المضايقات ألوانا أثناء تحضيري لدكتوراه طب الفم، وكان الأستاذ المشرف يضيع الوقت دون أن يبذل أي جهد في الإشراف أو متابعة التجارب، بل كل عمله كان وضع العقبات والتسويف سنين عدداً، بل للأسف ولا أذيع سرا غير معروف ، فقد وصل الأمر إلى حد الابتزاز!! . ولعل أبرز تجربة وأشدها دلالة على مدى بعد الأستاذ المشرف عن العقلية العلمية، والتعامل السوي، أن الأستاذ المشرف حدثته عن ظاهرة مرضية لاحظتها ولم يكن لها ذكر في المراجع الطبية، ففوجئت به يستنكر ما أقول بصورة متحدية، وأخذ يسفه ما أقول ورفض حتى مجرد أن أعرضها عليه ليرى بعينيه تلك الظاهرة!! ورغم ذلك فقد نشرت بعد ذلك هذه الظاهرة المرضية في إحدى الدوريات الطبية في الخارج.

من تجربتي الشخصية أود أن أؤكد أن هناك فرقًا هائلاً بين المعلم والأستاذ الناقل

للمعلومات، وبين المعلم المربي، القادر على تنمية ملكات الإبداع لدى الطالب، المحفز له للتقدم. ورحم الله "الغزالي" الذي جعل المعلم في مكانة الزارع الذي يحيط النبتة بكل الرعاية لتنمو وتثمر. ذلك أن المبدع الذي يرى مالا يراه الآخرون يجب أن يحاط بكل الرعاية ليصل إلى درجة الإنتاج.

العلم لا يكون ولا يزدهر إلا في مجتمع يتمتع بحرية الفكر، إلى جانب وجود حياة روحية ترسخ في النفوس قوة الضمائر وصحوتها، فتجعلها متيقظة أبدا فلا تقترب من الخطأ، ذلك أن للعلم أخلاقيات يجب الالتزام بها.

يقول لنا "أبو حامد" إن: "النقص في الوجود عين كماله، ولو استقام القوس ما رمى". أي أن النقص الكامن فينا هو ما يدفعنا لإكماله، وهذا الإحساس دليل على السواء النفسي، القادر على التجاوز والترقي. وهو ما يميز المبدع، أعني تلك القدرة على تجاوز التناقض بين ما يستشعره من نقص، وما يطمح لتحقيقه في الخارج من خلال تحقيق إبداعه. بصيغة أخرى، فإن ما يميز المبدع هو ارتفاعه على مواطن الضعف داخله، وعدم استسلامه للإحباط بالقدرة على التواصل مع النفس وإخراج إنتاجه الإبداعي.

والسؤال الذي يجب أن نواجهه بجدية بعد كل ذلك هو: ما جدوى المؤسسات التعليمية إذا كان أثر التعليم يضيع وسط تدهور القيم الأخلاقية؟ أزمتنا الكبرى في جوهرها روحية أخلاقية، ومع ذلك فالجوانب الاقتصادية والسياسية والإدارية والتكنولوجية يتناولها الجميع بالحديث والبحث، دون النظر للجانب الأخلاقي فيها، على الرغم من أن جذورها وأسبابها جميعا راجعة لانطفاء الجذوة الأخلاقية. الفساد الأخلاقي ناجم من أن الكثرة تأكل الحرام ولا تبالي، يستوفون أجورهم ولا يعملون، وإذا عملوا لا يتقنون، يأخذون من المجتمع أقصى ما تصل إليه أيديهم ولا يقدمون له المقابل، وآخرون يبنون أنفسهم بتحطيم غيرهم، أو يتسلقون فوق أكتاف الآخرين استرضاء لهم على حساب الحق والعدل، أو التخلص من حرج اليوم بتحميل الخسائر على الغد، السباق المجنون على الاستهلاك والترف واللهو دون عمل جاد، كل تلك الصور من السلوكيات إنما يقف وراءها فساد أخلاقي.

هكذا وجدنا المادية والأنانية والطفيلية والانتهازية والوصولية و النفعية، وغير ذلك من

الرذائل المدمرة مثل اللامبالاة، وضعف الإنتاج وسوء الاستهلاك، عدم احترام المال العام، كل هذه الأخطار الناجمة عن سوء الأخلاق، باتت تحيط بنا وتضغط علينا، ومن ثم يجب الوقوف أمامها ودرء أخطارها بكل حسم من خلال إعادة سلطان الأخلاق للمجتمع. ذلك أن أثر التعليم ـ مهما كانت كفاءته ـ يضيع في وجود قيم أخلاقية مجتمعية متدنية، بدءاً من تدني أخلاقيات المرور التي نواجهها كل لحظة، إلى استحلال نهب أموال الناس والهروب بها للخارج.

التربية الأخلاقية عمل يستغرق العمر كله، فهي صناعة شاقة، وتجارب متعددة وتكلف مستمر ينتهي بأن يكون الخلق ملكة قائمة وصبغة ثابتة. الأخلاق الإنسانية كالصدق والأمانة والوفاء والشرف والصبر والإخلاص والرحمة والحياء، تحتاج لهمة عالية من مجاهدة النفس إلى جانب وجود النماذج الإنسانية التي يمكن أن تكون قدوة ومثالا يحتذى به. هذه الهمة العالية لبناء الأخلاق مطلوبة دائما لأن الطباع الرديئة دائمة الإلحاح على صاحبها، تحاول العوج بسلوكه بين الحين والحين، لذلك فلا يوقف شرها علاج مؤقت، بل يجب قمعها باستمرار.

التظالم بين الناس تشيعه رذائل الحقد والحسد والبغضاء، إلى جانب ذلك روح الانتهازية، وحب الإثراء من أي طريق، إلى جانب فقد الثقة بجدوى الاستقامة نتيجة وجود الظلم الاجتماعي، كل هذه المظاهر هي من آثار فساد الأخلاق.

وما أجمل موقف الخليفة الراشد "عمر بن العزيز" حيث نصح والي حمص لما طلب منه مالا ليبني سورا حول المدينة يحفظها من غارات المغيرين عليها، فقال له: "حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم". المغزى من هذه النصيحة أن المدينة التي يشعر أهلها بالعدل واختفاء الظلم منها، يكون أقوى من أي حصن يدافع عنها.

جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: "أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، قليل الكلام، صدوق اللسان، كثير العمل، قليل الزلل، برا، وصولا، وقورا، صبورا، شكورا، راضيا حليما، رفيقا، عفيفا، شفيقا، لا لعانا، ولا سبابا، ولا نماما، ولا مغتابا، ولا عجولا، ولا حقودا، ولا بخيلا، ولا حسودا، بشاشا، هشاشا، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق". [1]

(١) مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ـ دار الشعب ـ ص ٣٥٦، ص ١٠٥.

مما يدمي القلب حقيقة أن المعوق الأساسي للنهضة والتقدم هو ما يشعر به الأفراد من علل أخلاقية لا ينبغي لها أن توجد أبدا، وهي أمراض بغيضة مدمرة. وأي تقدم لن يتحقق إلا بمعالجة تلك العلل المهلكة. معركة المبادئ والأخلاق يجب خوض غمارها بغير توان وبقوة إن أردنا أفرادا أسوياء بالصورة التي نرجوها دعما للمجتمع وتقدمه. معركة للتربية الأخلاقية للإنسان القوي الذي يطلب عظائم الأمور ويضحي من أجلها، ويخمد في نفسه كل رغبة في الأثرة والأنانية، ولا يكون في قلبه إلا حب الوطن.

الأخلاق ليست من الترف الذي يمكن الاستغناء عنه، بل هي أصل الإنسانية التي تحترم نفسها. وحسن الخلق لا يؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة، لأن التأديب المستمر يحتاج لتربية طويلة من الصغر وتعهدا مستمرا طول العمر، وفي وجود أسوة حسنة تترك أثرا طيبا فيمن حولها. الأخلاق ليست ترفا لأن النفس الصالحة هي هدف كل إصلاح، والخلق القويم ضمان لكل حضارة، أما النفس المختلة فتثير الفوضى في أحكم النظم، وتستطيع النفاذ لأغراضها الدنيئة من خلال أساليبها اللاأخلاقية، بينما النفس الكريمة التي يشرق نبلها من داخلها فتحسن التصرف في كل الأحوال دون جور أو انحراف، قادرة على مواجهة إغراءات المصالح والأنانية، وتغليب الحق والخير، متخلصة من وساوس الإثم التي تحاول السقوط بها.

الفطرة السليمة تستقيم مع الحق وتندفع إليه ما لم يطرأ عليها تشويه يثنيها عن وجهتها للخير والفضيلة. هذه الطوارئ المفسدة للفطرة قد تكون من تقاليد بيئات ساقطة، أو رواسب أفكار منحرفة. الخالق سبحانه وتعالى يوجهنا لمعنى الفطرة السليمة في قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (سورة التين: ٤). هذا التقويم الحسن هو معرفة الحق والاستمساك به والسير على مقتضاه للبلوغ إلى الفضل والنبل.

"وابن خلدون" ينبهنا إلى أن: "القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وفشا الخلاف. وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله، اتحدت وجهتها، فذهب التنافس وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد فعظمت الدولة". [1] ثم راح يشرح مظاهر الفساد فيقول: ". . . . فلذلك يكثر فيهم

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ الجزء الثالث ص ٦٧.

الفسق والشر والسفسطة والتحايل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، فتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك، واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة (الخداع) والسرقة والفجور . . . . ثم تجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله. ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة . . . فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته . . . وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها " .[1]

ثم يستمر في رسم الصورة فيقول : "وإذ أفسدت أحوال الأشخاص واحدا واحد اختل نظام المدينة وخربت . . . . فافهم ذلك واعتبر به، إن الترف إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد . . . بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الترف هي عين الفساد، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره، واستقامة خلقه للسعي في ذلك . . . وإذا فسد الإنسان في أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة " .[2]

أما "حجة الإسلام" فيرى المسألة من زاوية أخرى، ويتخذ أسلوبا آخر لتحليل المظاهر الاجتماعية، يميل فيها إلى الجانب الديني لكونه رجل دين، فيقول : "اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ ،وله في إصلاحها شغل، فهذه ثلاثة أمور. أما الأعيان التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها . . . ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . . . وقد جمعها الله تعالى في قوله العزيز : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ . . .﴾ (آل عمران : ١٤)، وهذا من الإنس، ﴿. . .وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . . .﴾، وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ والياقيت وغيرها، ﴿. . .وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ . . .﴾، وهي البهائم والحيوانات، ﴿. . .وَالْحَرْثِ . . .﴾، وهو النبات والزرع، فهذه هي أعيان الدنيا .

هذه الأعيان لها مع العبد علاقتان :

علاقة مع القلب : وهو حبه لها وحظه منها، وانصراف همه إليها . . . ويدخل في هذه

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص ١٤٢ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ـ ص ٣٣٥ .

العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا، كالكبر والغل والحسد والرياء والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر، وهذه هي الدنيا الباطنة. وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية مع البدن: وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح حظوظه، وهي جملة الصناعات والحرف التي كل الخلق مشغولون بها. والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا بهاتين العلاقتين، علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشغل... فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم... فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه: فطائفة يأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهب من ليس لهم تنعم في الدنيا ولا قدم في الدين. وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا لأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا.... فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر. وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال إلى أن يدركهم الموت.... فيكون للجامع تعبه وللآكل لذته، ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون. وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح... ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة (في أيامنا تكون السيارات الفارهة)، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غني وأنه ذو ثروة. فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس. وطائفة أخرى ظنوا إن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس فصرفوا همهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس. ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر في آخرتهم وميعادهم. ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، وكلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل... وإنما الناجي فرقة واحدة وهي السالكة ما كان رسول الله ﷺ يسلكه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية... بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده.[1]

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص ٣٣٦.

هاتان رؤيتان، رؤية لعالم اجتماع وأخرى لفقيه، تتفقان في أهمية الأخلاق للمجتمع، خاصة عندما تكون مرتبطة بالتوجه الديني الفطري عند الإنسان. وتنبهنا تلك الرؤية المشتركة إلى أن تراكم الثروات المفرطة مولدة للاستبداد، والاستبداد يفسد الأخلاق ويشوه الفطرة السليمة، ويغير القيم، ويجعل المرء حاقدا فاقدا حب الوطن، كما أن اجتماع السلطة والثروة مهلكة للأخلاق وللمجتمع.

كلمة أخيرة نؤكد بها على أن الاهتمام بالجانب الإنساني الأخلاقي هو أهم عنصر من عناصر بناء النهضة. ويكفي الإنسان النظر فيما ما يشير إليه القرآن العظيم للطبائع غير السوية التي يوسوس لها الشيطان بفتن الدنيا فيقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ...﴾. ثم يؤكد لنا القرآن العظيم أن هذه الشهوات إلى زوال فيرشدنا أن: ﴿...ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(آل عمران: ١٤). وفي موضع آخر يبصرنا القرآن الكريم فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الكهف: ٧). وعلى ذلك، فكل هذه الشهوات والزينة قد جعلها الله سبحانه وتعالى لاختبارنا، وقياس مدى قدرتنا على مواجهتها، فإن طلبت في غير حلها أو أخذت بشره، أفسدت الأخلاق وأطغت طالبها، فتنسيه الحق ويصبح ظالما، لا يبالي باقتراف المظالم[1].

(١) إحياء علوم الدين ـ الجزء الثالث ص ٢١٩ـ ٢٢٤.